

شعر خاصة الأيوبيين

د . عامر خلف طعمة

جامعة تكريت . كلية التربية / سامراء . قسم اللغة العربية

مقدمة

يتناول هذا البحث شعر أبناء الأسرة الأيوبية على امتداد قرن من الزمان ، وهي حقبة طويلة نسبياً ، زامنت الحروب الصليبية التي كانوا من أبرز أبطالها ، ومما يبدو معه أن اهتمامهم بالشعر ومشاركتهم فيه مع كثرة مشاغلهم في هذه الحروب أمر مثير للدهشة بادئ ذي بدء ، غير أن هذه الدهشة لا تلبث أن تزول إذا عرفنا أنهم كانوا يحرصون على التنقف بعلوم العربية وآدابها على أيدي أساتذة أكفاء ، فضلاً عن أنهم كانوا يراعون حركة علمية وأدبية واسعة ، لإحساسهم أن المخاطر التي كانت تهدد الأمة لا تهدد أراضيها فحسب ، وإنما تتعدى ذلك إلى تهديد وجودها أمة لها تراث وحضارة ضربت جذورها في أعماق هذه الأرض . وغني عن التعليق قول صلاح الدين الأيوبي لأصحابه : (لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيفكم بل بقلم القاضي الفاضل) للدلالة على الأهمية التي أولاهها هؤلاء للأدب بكونه سلاحاً من الأسلحة المهمة في معركتهم مع الغزاة .

ظل هذا الموضوع على أهميته بعيداً عن متناول الدارسين المحدثين إلا ما كان من أمر شعراء قلائل منهم ، نالوا شهرة واسعة كالملك الأمجد ، ولعل سبب ذلك يعود في جانب منه إلى غلبة الجانب السياسي والعسكري على حياة هؤلاء القادة الأفاضل ، وفي جانب آخر يعود إلى ضياع الكثير من إشعارهم .

وفي هذا البحث تناولت باقتضاب شعر أبناء هذه الأسرة واهم شعرائها مع التمثيل لهم بعينات من إشعارهم ، مع أنني لم أتوسع كثيراً في الحديث عن الكثير منهم ، كالملك الأمجد والملك الناصر داود . وتناولت بشيء من التفصيل والإسهاب موضوعات شعرهم وأهمها الاخوانيات والغزل والحكمة والوعظ ، واختتمت البحث بالحديث عن السمات الفنية المميزة لأشعارهم .

الأيوبيون والشعر

كان ملوك بني أيوب ذوي مقدرات سياسية ومهارات عسكرية أهلتهم لان يديروا الحرب مع الغزاة من الإفرنج في الشام ومصر بكفاية عالية . ومع ذلك فإنهم لم يهملوا الاهتمام بجانب آخر مهم من جوانب صراعهم الحضاري مع هؤلاء الغزاة ، إذ كانوا يتمتعون بحس تاريخي متميز لأبعاد هذا الصراع وصفحاته ، ولذلك وجدناهم يعدون له العدة على صعيد الفكر والفن بالدرجة نفسها التي اعدوا فيها لهذه المواجهة في ساحة المنازلة ، فاهتموا

بالعلم واستقدموا العلماء من الأماكن البعيدة ، وهيؤوا لهم كل الوسائل التي تعينهم على أداء رسالتهم . واهتموا بإنشاء معاهد العلم ومدارسه .

استوى في هذا الاهتمام الرجال منهم والنساء ، فمن أراد أن يقف على ذلك فليرجع إلى كتاب الدكتور أحمد أحمد بدوي (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية) . كانت لهم إلى جانب ذلك كله مشاركة حسنة في العلوم والآداب ، فكان منهم الكتاب والشعراء المجيدون ، ولم يكن بنو أيوب بدعاً من ذلك بين الملوك ، فقد سبقهم إلى مثل هذا ملوك بني أمية وخلفاء بني العباس ، إذ أثر عن الكثير منهم شعر حسن ، وقد روى السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء طائفة كبيرة من أشعارهم ، فمما رواه ليزيد بن معاوية قوله :

أب هذا الهم فاكتنعا	وامر النوم فامتنعنا
راعياً للنجم ارقبه	فإذا ما كوكب طلعا
حام حتى أنني لأرى	انه بالغور قد وقعا
ولها بالماطرون إذا	أكل النمل الذي جمعا
نزهة حتى اذا بلغت	نزلت في جلق بيععا
في قباب وسط دسكرة	حوله الزيتون قد ينععا ^(١)

ومما نقله من شعر الأمين قوله في أخيه المأمون :

لا تقخرن عليك بعد بقبية	والفخر يكمل للفتى المتكامل
وإذا تطاولت الرجال بفضلها	فاربع فانك لست بالمتطاول
أعطاك ربك ما هويت وإنما	تلقى خلاف هواك عند مراجل
تعلو المنابر كل يوم أملا	ما لست من بعدي إليه بواصل
فتعيب من يعلو عليك بفضله	وتعيد في حقي مقالي الباطل ^(٢)

أما بنو أيوب فقل أن نجد من بينهم من لم يكن عنده ميل إلى الشعر أو مشاركة فيه ، فمما أثر عن صلاح الدين (رحمه الله) بيتان من الشعر ذكر انه كتبهما في أول ملكه بمصر إلى بعض أصحابه في بلاد الشام . وهذان البيتان هما :

أيها الغائبون عني وان كن	تم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني منذ فقدتكم لأراكم	بعيون الضمير عندي عيانا ^(٣)

وجاء في أخباره انه كان يحفظ كتاب الحماسة لأبي تمام (٢٣١هـ) بتمامه^(٤) ،

وكان له فوق ذلك ذوق في الشعر ، فكان يستحسن الجيد منه ويردده^(٥) ، وكثيراً ما كان يضمن كتبه التي يبعث بها إلى أصحابه وخلانه شيئاً منه ، فقد كتب يوماً إلى أخيه توران شاه (٥٧٦هـ) كتاباً بخطه يذكر فيه وقعة الرملة التي تغلب فيها الإفرنج على المسلمين . وأول هذا الكتاب بيت لأبي العطاء السندي (نحو ١١١هـ) :

(ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المتقفة السمر
ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده

.....

وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر (٦)

وكان صلاح الدين معجبا بالأمر الشاعر أسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) ، وكان يفضل ديوان شعره على جميع الدواوين ، ولفرط إعجابه به أقطعه ضيعة من أعمال المعرة ومملكه بدمشق داراً وجعل له راتباً ، وكثيراً ما كان يجالسه ويذاكره في الأدب (٧) .

وكان تاج الملوك بوري اصغر اخوته لأبيه ((فاضلاً أديباً شاعراً وله ديوان شعر مشهور)) (٨) ، قال ابن خلكان : ((فيه الغث وفيه السمين لكنه بالنسبة الى مثله جيد)) (٩) ، ومن شعره قوله في الغزل :

يا حياتي حين يرضى	ومماتي حين يسخط
آه من ورد على خد	يك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطا	ن على ضعفي مسلط
قد تصبرت وان بر	ح بي الشوق وافرط
فلعل الدهر يوما	بالتلاقي منك يغلط (١٠)

وورث أبناء صلاح الدين عنه حبهم الشعر والشعراء ، وقرضه نفر منهم ، فالأفضل علي (٦٢٢ هـ) وهو أكبرهم كان ((فاضلاً متأدباً ينظم الشعر الجيد)) (١١) ، ومعظم شعره الذي انتهى إلينا يكاد يستغرقه لون واحد من ألوانه هو الشكوى من الناس وما يلاقيه من ظلم بعض ذوي قرابته ، إذ إنه لم يكن موفقاً في حياته السياسية ، على الرغم مما كان عليه ((من فطنة ومعرفة وكتابة ونباهة)) (١٢) ومن شعره قوله :

يا من يسود شعره بخضابه	لعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها:فاختضب بسواد حظي مرة	ولك الأمان بأنه لا يفصل (١٣)

وللملك الظاهر غازي بن صلاح الدين (ت ٦١٣ هـ) شعر حسن (١٤) منه قوله مجيباً محمداً بن نصير المعروف بابن القيسراني (ت ٥٤٨ هـ) على أبيات كان بعثها إليه :

طلبنا الدر من بحر المعاني	وعذب اللفظ من عذب اللسان
وهل تجنى ثمار الفضل الا	فروع اصلها حلو المجان
فلا عجب ان استسقيت عينا	او استسقيت منطلق العنان
وانت السابق الغايات فضلاً	اذا ما قصرت خيل الرهان
فأهلا ثم أهلا ثم أهلا	بما أرسلت من سحر البيان (١٥)

قال صاحب كنز الدرر بعد أن أورد هذه الأبيات : لعل ((هذا الشعر يعتد به في طبقة المطرب من طبقات الشعر ، لجودته وسلاسته وحسن ترصيفه وبراعة معانيه))^(١٦) . وحقاً ، فإن هذا الشعر بجمال لغته ورشاقته أسلوبه وحسن تركيبه يدل على شاعرية فذة وقدرة عالية على النظم ، لا تتأتى إلا لشاعر متمكن من أدواته عارف بأسرار صناعته ولا سيما إنها جاءت في باب المجاوبات التي لا تمنح الشاعر حرية كافية للتصرف بفنه ، بل تضطره الى التقيد بذات الأوزان والقوافي للقطعة المرسله إليه .

ولم يكن أبناء العادل أخي صلاح الدين بأقل نصيباً في النظم من أبناء عمهم ، فلعلهم كانوا أوفر نصيباً منهم في هذا الباب ، فقد ذكر أن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ((يحب الأدب كثيراً))^(١٧) عالم بموسيقى الشعر إذ وضع كتاباً في العروض ، وله ديوان شعر^(١٨) ، ومن شعره هذان البيتان اللذان كتبهما إلى ابن القيسراني جواباً على أبيات كان بعثها إليه :

يا من تفرد بالفضائل دائماً ابدا يأسس مجدها تأسيساً
لا زلت في درج المكارم راقياً تعلق وربحك بالثنا مأنوساً^(١٩)

ولم يكن المعظم شاعراً وأديباً حسب بل كان ((عالماً بعدة علوم ، منها الفقه على مذهب أبي حنيفة ، فإنه كان قد اشتغل به أيضاً اشتغالاً زائداً وصار فيه فاضلاً ، وكذلك اللغة وغيرها ... ونفق العلم في سوقه وقصده العلماء في الآفاق ، فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم ، وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم))^(٢٠) ، فكان بحق رجل بني ايوب وعالمهم كما نعته صاحب النجوم الزاهرة^(٢١) .

وكان أخواه المظفر غازي (٦٤٥ هـ) والكامل محمد (٦٣٥ هـ) ينظمان الشعر أيضاً^(٢٢) . فقد ذكر صاحب كتاب شفاء القلوب أنه رأى مجموعاً معزواً إلى الكامل نقل منه الأبيات الآتية التي بعث بها إلى أخيه الملك الأشرف (٦٣٥ هـ) حينما اشتد حصار الإفرنج لدمياط العام ٦١٦ هـ .

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي فارحل بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوبك رقلا او موجفا بتجشم في سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت و لا تنخ الا على باب المليك الاشرف
واقر السلام عليه من عبد له متوقع لقدمه متشوف
واذا وصلت الى حماه فقل له عني بحسن توسل وتلطف
ان تأت عبدك عن قريب تلقه ما بين حد مهند ومتقف
او تبط عن انجاده فلقاؤه بك في القيامة في عراض الموقف^(٢٣)

وكان الناصر داود بن المعظم (٦٥٦ هـ) أرق أبناء العادل طبعاً وأحلامهم ديباجة شعر ، ولعل سبب ذلك يعود إلى أنه كان يجمع بين صناعتي الشعر والنثر^(٢٤) ، ومن قديم لفظ ابن رشيق أن أشعار هذه الطبقة تتسم برقة الطبع وحلاوة الألفاظ ولطف المعاني والتفنن البديع فيها ، إذ قال : ((والكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً وأملحهم تصنيفاً وأحلامهم ألفاظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف))^(٢٥) .

وكان تقي الدين عمر بن شاهنشاه (٥٨٧ هـ) ((فاضلاً متأدباً حسن الشعر))^(٢٦) . فقد ذكر ابن تغري بردي أن له ديوان شعر^(٢٧) ، وكان عمه صلاح الدين يحبه ((أكثر من محبته لسائر أهله ، لما كان قد خصَّ به من الشهامة والنجابة والإقدام العظيم ، ولفرط طاعته))^(٢٨) له ، ومن شعره يخاطب عمه :

أصلاح دين الله أمرك طاعة فممر الزمان بما تشاء فيفعلا
فكأنما الدنيا ببهجة حسنها تحلا علي إذا رايتك مقبلاً^(٢٩)

وكان أخوه عز الدين فروخشاه (٥٧٨ هـ) نظيره في ذلك ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي أن له أشعاراً كثيرة مدونة^(٣٠) ، وأثر عن ولده محمد (٦١٦ هـ) انه كان ينظم الشعر أيضاً ، وليس هذا حسب ، فقد قيل : إن له فيه تصنيفاً سماه (طبقات الشعراء)^(٣١) ، وناهيك عن الملك الأمد بهرام شاه بن فروخشاه ، فهو شاعر بني أيوب^(٣٢) ، ونعته الكثير ممن ترجموا له ، وديوانه مطبوع متداول في عصرنا .

ولم يكن المتأخرون من بني أيوب أقل اهتماماً بالشعر من سابقهم ، إذ برز من بينهم شعراء كبار كالملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن صلاح الدين (قتل العام ٦٥٩ هـ) ، فقد ذكر أن ((له أشعاراً كثيرة))^(٣٣) ، والملك المؤيد إسماعيل حفيد تقي الدين عمر (٧٣٢ هـ) فقد كانت له باع طويلة في النظم وفي العلوم أيضاً^(٣٤) ، والملك العادل غازي من أحفاد الملك الكامل محمد (٨٢٧ هـ) إذ ذكر الحنبلي أن ديوانه كان مرتباً ((على ستة أبواب : الأول : في المواعظ ... والثاني : في الاخوانيات وما يناسب شرح الشباب ... الثالث : في المراثي والعتاب ... الرابع : في المديح والغزل ... الخامس : في الخمریات ... السادس : في المداعبات))^(٣٥) .

موضوعات شعرهم

١. الاخوانيات :

هذا اللون من ألوان الشعر بما يشتمل عليه من مساجلات شعرية ومعارضات أو تهنئة أو اعتذار وعتاب إلى غير ذلك من المضامين ، كان شائعاً مألوفاً في شعرنا العربي منذ

عصوره الأولى ، وهو في حقيقته يعكس الجانب الإنساني في أدبنا ، إذ إنه يصور العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وأصدقائهم .

والاخوانيات ، اتجاه عام يغلب على أكثر شعراء الأسرة الأيوبية ، فقد عرف عن هؤلاء مع ما هم عليه من عز وجاه وسلطان اقتربهم من الناس ، ولاسيما الطبقة المثقفة منهم ، فضلا عن سبب آخر مهم تمثل في أنهم كانوا يقرضون الشعر على سبيل التطرف والتأدب ، ولذلك وجدناهم يبتعدون فيه عن تلك الفنون التي تحتاج إلى فضل جهد في الصياغة والبناء ، كالمدح والثناء ، واقتربوا به من تلك الألوان التي لا تحتاج إلى أكثر من القدرة المتواضعة على قرض الشعر والإحساس المرهف بموسيقى الألفاظ والتراكيب ، من ذلك ما روي عن الأفضل علي أنه كتب إلى بعض أصحابه : ((أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم ، وسبب ذلك أن :

أي صديق سألت عنه ففي
والذي ضد سألت حالته
الذل وتحت الخمول في الوطن
سمعت ما لا تحبه أذني))^(٣٦)
وكتب الشيخ تاج الدين الكندي^(٣٧) إلى الملك الأمدج يقول :

لا تضجرنكم كتبي وان كثرت
والله لو ملكت كفي مسالمة
فان شوقي إضعاف الذي فيها
من الليالي التي حظي يحاكيها
لما تصرم لي في غير داركم
عمر ولا مت الا في نواحيها
فأجابه الأمدج :

انا لنتحفنا بالأنس كتبكم
وكيف نضجر منها وهي مذهبة
وان بعدتم فان الشوق يدنيها
من وحشة البين لوعات نعانيها
فان وصفتم لنا فيها اشتياقكم
فعدنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيم الصبا تهدي تحيتنا
إليكم فهي تدري كيف تهديها^(٣٨)

ومما يدخل تحت هذا اللون قصيدة الناصر داود بن المعظم التي قالها معاتباً عمه الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل (٦٤٧ هـ) حينما وضع يده على ضياع الكرك من أملاكه العام (٦٤٤ هـ) ، وفيها يقول :

قل للذي قاسمته ملك اليد
عاصيت فيه ذوي الحجى من اسرتي
ونهضت فيه نهضة المستاسد
ياقاطع الرحم التي صلتني بها
واطعت فيه مكارمي وتوددي
ان كنت تقدح في صريح مناسبي
كتبت على الفلك الاثير بعسجد
عمي ابوك ووالدي عم به
فاصبر بعزمك للهيب المرصد
صالا وجالا كالأسود ضواريا
يعلوا انتسابك كل ملك أصيد
فارتد تيار الفرات المزبد

أعراضكم بفرنده المتوقد
بمفصل من لؤلؤ وزبرجد

خضعت لعزمه جباه السجد
مني افتخار بالقريض المنشد
فالحاكمون بمسمع ومشهد
لرميت ثغرك بالعادة المرد
ندما يجرعني سمام الأسود
لنراك تفعل كل فعل مرشد
وترد شمل البيت غير مبدد
للخارجين وضحكة للحسد^(٣٩)

دع سيف مقولي البليغ يذب عن
فهو الذي قد صاغ تاج فخاركم
ومنها قوله :

يا مخرجي بالقول والله الذي
لولا مقال الهجر منك لما بدا
ان كنت قلت خلاف ما هو شيمتي
والله يابن العم لولا خيفتي
لكنني ممن يخاف حرامه
فأراك ربك بالهدى ما ترتجي
لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً
كي لا ترى الايام فينا فرصة

٢. الحكمة والوعظ والزهد والاستغاثة

لهذه الموضوعات نصيب كبير في شعر الأيوبيين ، لما كانوا يملكون به من محن ومصائب ، ولما كانوا يحسونه كلما تقدم بهم العمر من وهن يفضي بهم إلى أن يلقوا أمام أنفسهم مقرين بضعفهم ، وبأنهم بشر مثل سائر الناس يحكمهم مصير واحد ، وفي لحظات الضعف هذه كانت أسنتهم تنطلق بشعر يفيض حكمة وموعظة واعتباراً بالمصائب ، ولئن كانت هذه الأشعار لا تنطوي على فكرة جديدة فإنها كانت تتميز بأصالة الإحساس وصدق العاطفة ، ولذلك جاءت في مجملها سهلة واضحة في ألفاظها ومعانيها لا تثقلها الصنعة ، ومن أجل ما قيل في هذا الباب ، الأبيات الآتية ، وهي لشهاب الدين غازي حفيد الملك الكامل :

وهذا مشيبي في عذاري قد بدا
وخذ واجتهد في الخير تسعد به غدا
هواها فمن لم يعصها يشمت العدا
فصبح لسان الشيب للسير قد بدا
فهذا زمان قد تصدى لك الردى^(٤٠)

زمان جموح القلب يا صاح قد غدا
فخل الغواني والتصابي بمعزل
ودع حرص هذي النفس جهدك لا تطع
وقم في جميع الليل لله قانتا
وبادر لباقي العمر واحذر نوائبا

ومن هذا الباب أيضا ما قاله عز الدين فروخشاه :

وتوقع حكم العدل احسن موقعه
فظلمك وضع الشي في غير موضعه^(٤١)

إذا شئت أن تعطي الأمور حقوقها
فلا تصنع المعروف في غير أهله
ومن شعر الملك الأمجد (دوبيت) :

يا غفلاتي فيه وما إنساني
يا عمر فهل بعدك عمر ثاني^(٤٢)

كم يذهب هذا العمر في الخسران
ضيعت زمانني كله في لعب

ولما اعتقل صاحبُ حلب الناصر داود العام (٦٤٨ هـ) نظم قصيدة يستغيث بها إلى الله طالباً منه العون على إنقاذه من محنته ومما قاله فيها :

الهي الهي أنت أعلا وأعظم	بمحقوق ما تبدي الصدور وتكتم
وأنت الذي يرجى لكل عزيمة	وتخشى وانت الحاكم المتحكم
إلى علمك العلي أشكو ظلامتي	وهل بسواه ينصف المتظلم
أبث جنایات العشيرة معلنا	إلى من يمكنون السرائر معلم
انتههم مستنصرًا متحرفًا	كما يفعل المستنصر المتحرم
فلما ایسنا نصرهم ونوالهم	رمونا بافك القول وهو مرجم
اغثنا اغثنا من عدانا يكن لنا	بك النصر حتى يخذلوا ثم يهزموا
فنصرك مجعول لنا ومعجل	وبرك معلوم بنا فهو معلم ^(٤٣)

٣. المديح :

إن ما وصلنا من شعر الأيوبيين في هذا الموضوع لا يؤلف ظاهرة مهمة لها سماتها وخصائصها ، ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم ملوك يستغنون عما يبعث إلى هذا اللون ، ولهذا جاءت قصائدهم فيه مختلطة بألوان أخرى كالتهنئة والعتاب والحماسة ، ومن هذا الباب الأبيات الآتية لتقي الدين عمر يمدح فيها عمه صلاح الدين ويهنئه لمناسبة فتحه القدس العام (٥٨٣ هـ) .

دع مهجة المشتاق مع أهوائها	يا لائمي ما انت من نصحاءها
جاءتك ارض القدس تخطب ناكحا	ياكفؤها ما العذر من عذرائها
زفت اليك عروس خدر تتجلى	ما بين اغيدها وبين إمائها ^(٤٤)

وفي العام (٦٣٣ هـ) توجه الناصر داود إلى الخليفة المستنصر بالله لاتذاً به من سطوة عمه الملك الكامل ، وكان الخلاف قد وقع بينهما ((فأمر الخليفة بتلقيه ، وقدم إلى الخليفة جوهرًا نفيسًا فقبله وخلع عليه وأمر له بالإقامات ، ورجا أن يؤذن له كما أذن لمظفر الدين صاحب اربل فلم يأذن له ، فعمل قصيدة)) يقول فيها :

ودان آلمت بالكثيب ذوائبه	وجنح الدجى وحف تجول غياهبه
واقبل وجه الارض طلقا وطالما	غدا مكفهرًا موحشات جوانبه
كساه الحيا وشيا من النبت فاخرا	فعاد قشيبا غوره وغواربه
كما عاد بالمستنصر بن محمد	نظام المعالي حين قلت كتابه
امام تحلى الدين منه بماجد	تحلت باثار النبي مواكبه
لئن نوهت باسم الامام خلافة	ورفعت الزاكي النجار مناسبه
فأنت الامام العدل والعرق الذي	به شرفت انسابه ومناصبه

جمعت شتيت الملك بعد افتراقه
ومنها قوله متلمساً أن يأذن له بنغمة فيها عتاب رقيق:

الا يا أمير المؤمنين ومن غدت
ايحسن في شرع المعالي ودينها
باني اخوض والدم مقفر
وارتكب الهول المخوف مخاطرا

.....

فتسمع لي بالمال والجاه بغيتي
واتيك والعضب المهند مصلت
وانزل آمالي ببابك راجيا
ويايتك غيري من بلاد قريبة
وما اغبر من جوب الفلاح وجهه
فياقني دنوا منك لم الق مثله
وينظر من لآلاء قدسك نظرة
ولو كان يعلونى بنفس ورتبة
لكنت اسلي النفس عما ترونه
ولكنه مثلي ولو قلت انني
وبى ظمأ رؤياك منهل ريه
وقد رضت مقصودي فتمت صدوره

.....

وفرقت جمع المال فانهال كاثبه
على كاهل الجوزاء تعلقو مراتبه
وانت الذي تعزى إليه مذاهبه
سسباريته مغبرة وسباسبه
بنفسي ولا اعيا بما انا راكبه

.....

وما الجاه الا بعض ما انت واهبه
طيرير شياه قانيات ذوائبه
فواضل جاه ييهر النجم ثاقبه
له الامن فيها صاحب لا جانبه
ولا انضيت بالسير فيها ركائبه
ويحضى وما احظى بما انا طالبه
فيرجع والنور الامامي صاحبه
وصدق ولاء لست فيه اصاقبه
وكنت اذود العين عما تراقبه
ازيد عليه لم يعب ذاك عائبه
ولا غرو ان تصفو لوردي مشاربه
ومناك ارجي ان تتمم عواقبه^(٤٥)

٤ . الغزل

شغل موضوع الغزل مساحة واسعة في شعر الأيوبيين ، وربما وجدنا من بينهم من قصر أكثر شعره عليه ، كالمملك الأمد وتاج الملوك بوري ، وهم في تناولهم هذا اللون ينقسمون على فريقين . فمنهم تقليديون سلكوا سبيل الشعراء المتقدمين في معانيهم وصورهم وفي جعلهم النساء الحرائر موضوعاً لغزلهم ، وقد مثل هذا الفريق الملك الأمد ومنه قوله :

دع العين ترفل في الفدند
ايانق تقطع عرض الفلا

.....

اذا لمع البرق من ارضها
طربت كاني نزييف سقوه
قله قلبي قبل الهوى

.....

واومض كالقابس الموقد
سلافة غمدان او صرخد
لقد كان كالصخرة الجلمد

ولكنه الوجود ما للقلوب
سلام على بانة المازمين
فهايتك اول ارض بها
منازل غيد حسان الوجوه
فلا زال يسقى ثراها العهد
حببية الملك الأمجد من العرب النهدي اللائي يقطن برقتي ثمهد والمازمين في الجزيرة
العربية ، ولتأكيد الصلة الفنية بينه وبين أسلافه من شعراء العربية جعلهن من الحرائر اللائي
يحرسهن رجال أشداء .

لما انتوى ذاك الفريق واصبحت
سرت القلوص ودونهن فوارس
شوس اذا اعتقلوا الوشح لغارة
يحمونها وهم اذا اشتد الوغى
وغلز الأمجد على الجملة تجلله هالة من العفة والطهر ، ويغلب عليه طابع الجزالة
اللفظية وفخامة المعنى ، ممّا يصح معه أن نقرنه بالشعراء الغزلين في العصر العباسي ،
كأبي الطيب المتنبي والشريف الرضي .

وأما الفريق الآخر من الشعراء الأيوبيين فقد سلكوا في هذا اللون سبيل جمهرة كبيرة
من معاصريهم ، فتغلزوا بالجوارى والغلمان على السواء ، إلا أنهم لم يسرفوا فيها إسراف
معاصريهم ، وإنما اتخذوا لهم طريقاً وسطاً لم يخرجوا فيه عن حدود الأدب ، من أمثلة ذلك
قول الناصر داود مفضلاً الجارية على الغلام .

احب الغادة الحسنا ترنو
ولا أصبو اللى رشاشا غزير
وانى يستوي شمسس وبدر
وهل تبدو الغزالة في سماء
بمقلة جؤذر فيها فتور
وان فتن الورى الرشاشا الغزير
ومنها يستمد ويستنيير
فيظهر عندها للبدر نور^(٤٨)

ومن هذا الباب ايضا قول عز الدين فروخشاه :

انا في اسر السقام
رشاش رششق عينا
كلما ارشش فني فا
ذقت منه الشهد في الثال
من هوى هذا الغلام
ة فؤادي بسسهام
ة على حر الاوام
ح المصطفى في المدام^(٤٩)

٥. موضوعات أخرى :

تناولت في المباحث السابقة الموضوعات التي كان لها نصيب كبير في أشعار بني أيوب ، ومن أجل أن نقدم صورة متكاملة عن شعرهم كان لزاماً علينا ، لكي نـنـصـفـهم ، أن نشير إلى موضوعات أخرى تناولوها على الندرة في شعرهم ، ومن هذه الأغراض الوصف فقد ولج بعض شعرائهم ميدانه فوصفوا البلاد ، ووصفوا ما كان يعتورهم من أحوال ومشاعر ، من ذلك ما قاله عز الدين فروخشاه واصفاً دمشق :

دمشق سقاك الله صوب غمامة فما غائب عنها لديّ رشيد
عسى مسعد لي ان ابيت بأرضها الا أنني لو صح لي لسعيد^(٥٠)

ومن الموضوعات الأخرى الرثاء ، ومنه قول الناصر يوسف حفيد الملك الظاهر غازي (٦٥٩ هـ) صاحب حلب ، التي أكثر من بكائها بعد ما رأى ما حل بها بعد استيلاء التتار عليها العام (٦٥٨ هـ) :

سقى حلب الشهباء في كل بقعة سحائب غيث نوؤها ماء ادمعي
فتلك مرامي لا العقيق ولا اللوى وتلك ربوعي لا زرود ولعاعي^(٥١)
وقوله :

يعز علينا ان نرى ربعم يبلى وكانت به ايات حسنكم تتلى
اقلب طرفي نحوكم في دياركم فاكثر فيها النوح كالنائحة الثكلى
لقد مر لي فيها افنانين لذة فما كان انا العيش فيها وما احدى
أحبابنا والله ما قلت بعـدكم لحادثة الايام رفقاً ولا مهلاً
عبرت على الشهباء وفي القلب حسرة ومن حولها ترك تبايعها فعلا
وقد حكموا في مهجتي حكم ظالم وما ظلم الا سبيلي كما أبلى^(٥٢)

نظرة عامة في الخصائص الفنية لشعر الأيوبيين

ذكرت عند دراستي موضوعات شعر الأيوبيين أنهم كانوا يقولون الشعر على سبيل التظرف والتأدب ، إذ إنهم بحكم ما هم عليه من جاه وسلطان وما هم بصدده من جهاد ومشاكل سلطة لا يمكن أن يقفوا مع عامة الشعراء على صعيد واحد في قرضهم الشعر ، ومن هنا جاز لنا القول : إن على الباحث أن يتفرق قليلاً عند نقده شعرهم ، وإن ينظر إليه من زاوية تختلف عن تلك التي ينظر من خلالها إلى أشعار الشعراء المحترفين ، ممن تفرغوا لهذه الصناعة ، ومرد ذلك كله من وجهة نظرنا . يعود إلى الباعث على النظم عند الفريقين ، وإذا نظرنا إلى شعر بني أيوب في ضوء هذه الحقيقة ، سنجد أن الدافع إلى قرض الشعر عندهم أدى بها إلى أن تتسم بسمات عامة متميزة في الشكل والمضمون ، فمن ناحية المضمون أدى ذلك إلى ضمور فنون المديح والهجاء والرثاء وانحسارها في دائرة ضيقة ، في

حين اتسعت لديهم دائرة الموضوعات الذاتية ذات الصلة بوجودان الفرد وحياته الخاصة ، إذ اتخذ هؤلاء الشعر وسيلة للإفصاح عمّا تعالج به نفوسهم من مشاعر وإحساسات في أحوالهم المختلفة من رضا أو سخط ، وهذه الموضوعات بحكم طبيعتها التي تحكمها المناسبة كانت تميل بهم إلى المقطعات ، لكونها شكلاً فنياً مناسباً صبوا فيه مشاعرهم المنفلتة في موقف من المواقف السريعة الخاطفة .

وهناك جانب آخر لتأثير تلك المضامين برز في تفصيلات البناء الفني لقصائد المطولين منهم ، كالناصر داود ، فلو ألقينا نظرة سريعة على قصيدته التي خاطب بها ابن عمه الصالح أيوب ، وقد سبق التمثيل بها لوجدنا أن غرضاً واحداً يحكمها هو العتاب ، وسنجد أيضاً أن الناصر سلك فيها سبيل المحاجة العقلية التي تخاطب فكر السامع لا عاطفته ، لذلك غلب عليها التفصيل والتحليل لا التخيل ، ونحن إذا استثنينا الملك الأمجد الذي مال إلى استعمال الألفاظ الغريبة في شعره ، سنجد أن السرعة دفعتهم إلى استعمال المألوف والعيادي من الألفاظ والتراكيب ، فجاءت لغتهم عامة واضحة سهلة ، لا تشوبها العجمة أو الركاكة .

وتأثر شعراء بني أيوب بذوق العصر ، فاستعملوا فنون البديع من جناس وطباق ومقابلة وغيرها . فمن الجناس قول الملك الكامل محمد :

صلوا مغرماً في حبكم واصل الضنا
ومن بعدكم طيب الرقاد فقد فقد^(٥٣)
وقول الملك المؤيد إسماعيل :

سرى نشر الصبا فعببت منه
من الهجران كيف صبا اليا^(٥٤)
وقول عز الدين فروخشاه :

أقرضوني زمناً قـربهم
واسـتـعادوا بالنوى ما أقرضوا
انا راض بالذي يرضيهم
ليت شعري بالتلاقي هل رضوا^(٥٥)
ومن الطباق قول تاج الملوك بوري :

يا غزالا يميت طورا ويحيى
هو برء السقام سقم الصـحـيح^(٥٦)
وقول الناصر داود :

واقبل وجه الأرض طلقاً وطالما
غدا مكفهرًا موحشات جوانبـه^(٥٧)
ومن المقابلة قول تاج الملوك بوري :

يا حيلتي حين يرضى
وممـاتـي حـين يسخط^(٥٨)
ومن التقطيع قول الأشرف أحمد :

غـرام واشتياق وغـربة
واطـلب منك الصـفـح عني والعفو^(٥٩)
واستعملوا التضمين في أشعارهم ، كقول تاج الملوك بوري مضمناً شطر بيت لأبي

الطيب المتنبى .



وانني لاستشفي من الموت بالردى (وحسبك داءً أن ترى الموت شافياً) (٦٠)
ومنه أيضاً قول الملك الأشرف أحمد مضمناً بيتاً لعبد الله بن أبي عينية :
وقد قال قبلي ناظم عن فتنة بفصاحة وبلاغـة وذكاء
(كل المصائب قد تمر على الفتى وتهـون غير شماتة الاعداء) (٦١)

(الهوامش ومصادر البحث)

- (1) تاريخ الخلفاء — السيوطي — القاهرة (د . ت) ١٢٠ .
- (2) المصدر نفسه : ٣٠٤ — ٣٠٥ .
- (3) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب — ابن واصل — تحقيق : جمال الدين الشيال — مطبعة جامعة فؤاد الأول — ١٩٥٣ م ، ١ / ١٧٢ .
- (4) البداية والنهاية — إسماعيل بن عمر بن كثير — مطبعة السعادة — مصر — ط / ١٣٥٨ هـ ، ١٣ / ٥ ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .
- (5) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب — الحنبلي — تحقيق : د . ناظم رشيد — دار الحرية للطباعة — بغداد ١٩٧٨ م ، ص ١٩٠ .
- (6) المصدر نفسه ٩٤ .
- (7) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين — أبو شامة المقدسي — تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد — طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٢ م ، ١ / ٢ / ٦٧٨ .
- (8) مفرج الكروب ٢ / ١٤٤ .
- (9) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — ابن خلكان — تحقيق : د . إحسان عباس — طبعة دار الثقافة — بيروت (د . ت) ، ١ / ٢٩٠ .
- (10) المصدر نفسه ١ / ٢٩١ .
- (11) مفرج الكروب ٣ / ٣٨ .
- (12) وفيات الأعيان ٣ / ٤٢٠ .
- (13) شفاء القلوب ٢٥٦ .
- (14) تاريخ ابن الفرات — تحقيق : د . حسن محمد الشماع — دار الطباعة الحديثة البصرة — ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م ، مج ٥ / ج ١ / ١٩٥ .
- (15) تاريخ ابن الفرات مج ٥ / ج ١ / ١٩٦ ، وكنز الدرر ٧ / ١٨٥ .
- (16) كنز الدرر ٧ / ١٨٥ .
- (17) وفيات الأعيان ٤ / ٤٩٤ .
- (18) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — ابن الجوزي — مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند — ط / ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٢ م ، ٨ / ٦٤٥ .
- (19) شفاء القلوب ٢٧٨ .
- (20) الكامل في التاريخ — عز الدين بن الأثير — طبعة دار صادر — ١٩٦٦ م ، ١٢ / ٤٧١ — ٤٧٢ .
- (21) النجوم الزاهرة — ابن تغري بردي — مطبعة دار الكتب المصرية ط / ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م ، ٦ / ٢٦٨ .
- (22) ينظر : شفاء القلوب ٢٩٩ وما بعدها ، ٣٢٢ وما بعدها .
- (23) المصدر نفسه ٣٠٢ — ٣٠٣ .
- (24) المصدر نفسه ٣٥٧ .

- (25) العمدة في محاسن الشعر - ابن رشيق القيرواني - تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت ٢ / ١٠٦ .
- (26) كنز الدرر ٧ / ٩٠ .
- (27) النجوم الزاهرة ٦ / ١٤٤ ، حوادث سنة ٥٨٧ .
- (28) كنز الدرر ٧ / ٩٠ .
- (29) المصدر نفسه .
- (30) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٢ .
- (31) ينظر فوات الوفيات - ابن شاکر الکتبی - تحقيق : د. إحسان عباس - طبعة دار صادر - ١٩٧٤ م ٢ / ٤٩٩ ، وبدائع البدائة - ابن ظافر الأزدي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة القاهرة - ١٩٧٠م - ٣٢٤ .
- (32) شفاء القلوب ٩١ .
- (33) المصدر نفسه ٤٢٠ .
- (34) المصدر نفسه ٤٦١ .
- (35) المصدر نفسه ٤٧٥ .
- (36) المصدر نفسه ٢٥٨ .
- (37) أبو الیمن زید بن الحسن الکندي كان نحوياً أديباً ولد ببغداد سنة ٥٢٠ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ٦١٣ هـ . وفيات الأعيان ٢ / ٣٣٩ - ٣٤٢ .
- (38) وفيات الأعيان ١ / ١٥١ - ١٥٢ .
- (39) النجوم الزاهرة ٦ / ٣٢٦ - ٣٢٧ .
- (40) شفاء القلوب ٤٧٥ .
- (41) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي - منشورات مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥١ هـ ٤ / ٢٦٢ حوادث سنة ٥٧٨ .
- (42) النجوم الزاهرة ٦ / ٢٧٦ .
- (43) شفاء القلوب ٣٥٣ - ٣٥٤ .
- (44) كنز الدرر ٧ / ٩ .
- (45) شفاء القلوب ٣٤٨ - ٣٤٩ .
- (46) ديوان الملك الأمجد - تحقيق : ناظم رشيد شيخو ١٠٠ .
- (47) المصدر نفسه ١٥٥ .
- (48) شذرات الذهب ٥ / ٢٧٥ حوادث سنة ٦٥٦ هـ .
- (49) الروضتين ٢ / ٣٣ .
- (50) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٨ .
- (51) شفاء القلوب ٤١٨ .
- (52) المصدر نفسه ٤١٩ .
- (53) المصدر نفسه ٣٠١ .



- (54) المصدر نفسه ٤٩٢ .
- (55) النجوم الزاهرة ٦ / ٩٣ .
- (56) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٥ .
- (57) شفاء القلوب ٣٤٨ .
- (58) وفيات الأعيان ١ / ٢٩١ .
- (59) شفاء القلوب ٤٨٣ .
- (60) المصدر نفسه ٥٨ .
- (61) المصدر نفسه ٤٨٢ .